

الرقابة والإبداع الأدبي
سهيلة سبتي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على قضية أساسية في مجال الإبداع ألا وهي قضية: "الرقابة الأدبية" والقمع الواقع على الأعمال الإبداعية سواء فكرية كانت أم سردية أم شعرية، عبر التطرق إلى ماهيتها بالكشف عن أسبابها الخفية والمعلنة، وأبعادها المتشابكة، وأشكالها المتباينة. يتجسد فعل الرقابة وممارستها عبر ثلاث مؤسسات رسمية تتمثل في: المؤسسة السياسية، والمؤسسة الاجتماعية، والمؤسسة الدينية. وأحيانا تتضافر جهود هذه المؤسسات، وأحيانا أخرى تتفرق لغاية واحدة هي: مراقبة النتائج الإبداعية، ومعاينة أصحابها الذين يتخذون التمرد شعارا لهم.

الكلمات المفتاحية: رقابة، إبداع، منع، مصادرة، تكفير، دين، تابو.

La Censure et la création littéraire

Résumé

Cette étude tente de mettre en évidence une question importante dans le domaine de la création, qui est: **LA CENSURE LITTÉRAIRE** et la répression des travaux créatifs que ce soit intellectuels, narratifs ou poétiques et cela, en les identifiant et en dévoilant les causes apparentes et cachées de cette censure, ainsi que ses dimensions intra-complexes, et ses différentes formes. Son application se manifeste à travers trois institutions: politique, sociale et religieuse. Parfois, ces institutions s'entraident, et d'autres fois elles se mettent en désaccord pour un seul objectif qui est la censure des productions créatives et la sanction de ses propriétaires qui font de la rébellion un slogan.

Mots-clés: Censure, création, interdiction, confiscation, apostasie, religion, tabou.

The Censorship and the literary creative

Abstract

This study seeks to shed light on a significant issue in the field of creativity; it is "The Literary Censorship" and the repression practised on creative works whether they are intellectual, narrative, or poetic and that by going into their essence, by means of unveiling their hidden and declared methods, their inter-complex dimensions and their different forms. The Censorship's act and its practices are represented in three institutions: politics, society, and religion. Sometimes these institutions assist each other whereas others get sporadic for one reason; which is the control of the creative productions and the punishment of their owners that take rebellion as a slogan of theirs.

Key words: Censorship, creativity, prohibition, confiscation, apostasy, religion, taboo.

تمهيد

تحول الإبداع العربي منذ منتصف القرن العشرين إلى ملاذ يحتمي به أصحاب النفوس المتمردة والأرواح المنكسرة الذين انفجرت الكلمة لديهم، فسعوا إلى مختلف الأجناس من رواية وشعر ومسرح وقصة وسينما كي تكون مجمعا لشظايا ذاك الانفجار. وبالفعل كان، إذ نحا منحى مغايرا لما شهدته بدايات القرن العشرين، والذي كان يتسم بالواقعية والتقليدية، وسلك مسارا جديدا متجددا باستمرار، من ناحية الشكل، والمضمون، واللغة... إلخ. فـ: "التجديد لا يحدث من المؤسسة، بل من أفراد يخرجون منها وعليها، والمؤسسة لا تؤهلهم لهذا الخروج، بل إنها تعرض معارضتها لهم، والخروج ليس سوى وعي شقي طامح لما هو أبعد وأرقى، ولكن على أكتاف المعطى المؤسساتي العرفي. وهذا ما يحدث معه"⁽¹⁾.

وبهذا عمد المبدعون والمبدعات إلى عملية انقلاب أدبي، فكانت اللغة مختلفة، والمضامين متعددة، والأشكال متجاوزة للمألوف والسائد. وبدأ النتاج الإبداعي يتحلى ويتزين بما يعرف بـ: المسكوت عنه أو التابو.

فما هو التابو أو المسكوت عنه؟

1- مفاهيم نظرية:

أ- مفهوم التابو: إن المسكوت عنه هو الخوض في مواضيع محظورة التناول والتداول ألا وهي: السياسة والدين والجنس. وهو: "مطلق قوامه المنع السلبي وليس الأمر الموجب أبداً، ولئن كان لا يجد تبريره في أي اعتبار أخلاقي، فإن خرقه غير جائز، لا لشيء إلا لأنه هو الشريعة التي ترسم حدود المسموح وغير المسموح بشكل قاطع"⁽²⁾. وبهذا الشكل تتحول السلطة ذاتها (سواء سياسية أو دينية أو اجتماعية) إلى "تابو" يعيق الحركة الفكرية السائرة بدعوى الحفاظ على الأخلاق العامة. والغاية من السلطة/التابو أو التابو/السلطة هي: "صون سلامة العالم المنظم، وفي الوقت نفسه، عافية الكائن الذي يتقيد به، من الناحيتين الجسدية والخلقية. إنه يمنع موت هذا الكائن، وعودة العالم إلى الحالة الفوضوية والسيالية "fluidique"⁽³⁾.

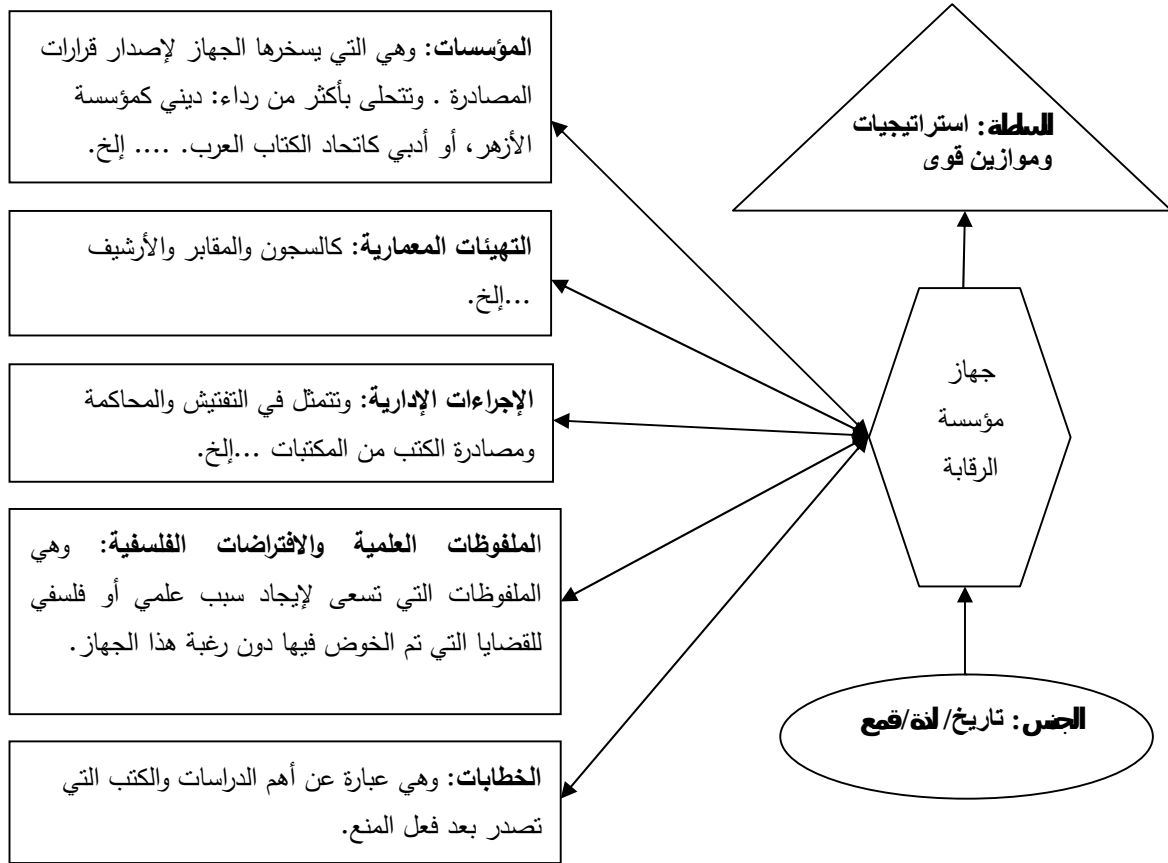
وإذا تمعنا في هذا الثالوث نجد مصائب الأمم وانهيائاتها وانتصاراتها قائمة عليه، بما فيها الأمة العربية والإسلامية. ولأجل هذا نجد هذه الدول تسعى دوماً إلى إظهاره وإخفائه خلف حجب وأقنعة مختلفة، فالسياسة يسعى دائماً إلى إبرازها باعتبارها نظاماً عادلاً لا ضرورة إلى تغييره. والمقولات الدينية عبارة عن أحكام مقدسة لا سبيل إلى التناول عليها - نقصد هنا الأحكام العرفية المستندة إلى خلفية الدين المتفق عليها اجتماعياً-. والجنس يجب أن يتوارى وراء قناع الأخلاق. وكل من يتطرق إلى هذه المواضيع بصراحة وجرأة أو يحاول معالجتها بالنقد والتحليل يتحول مباشرة إلى مارق وكافر وخارج عن القانون. ولذا نجد أن العديد من المبدعين العرب يتناولونها بالإيحاء دون التصريح وبالإشارة دون العبارة تقاديا لعواقب وخيمة بانتظارهم. ومقابل هؤلاء نجد آخرين يتمتعون بالجرأة فيقولون ما لا يقال ويستبيحون كلَّ محرم متحدين بذلك سيف الرقابة المسلط على أعناق الكلمات والكتب. تلك الرقابة التي يشتد عودها وتقوى عزيمتها كلما ولد مخطوط رواية.

فما هي الرقابة؟ وكيف تتجلى؟

ب- مفهوم الرقابة: يعرف عالم الاجتماع الكبير "بيير بورديو Pierre Bordieu" الرقابة بقوله: "كل تعبير هو توفيق بين منفعة تعبيرية ورقابة تشكلها بنية الحقل الذي يُستخدم فيه هذا التعبير. وهذا التوفيق هو نتاج عملية تورية قد تصل إلى حد الصمت، وهو الحد الأقصى الخاضع للرقابة"⁽⁴⁾. فالرقابة لديه هي عملية تواطؤ قبل أن

تكون توافقاً، تجمع بين المبدع/المفكر/صاحب منبر الحرية والإبداع والتوجيه، وبين مؤسسة ذات أبعاد سلطوية وملامح سياسية/ثقافية. فيتحول النتاج الأدبي بهذه الطريقة إلى صفقة تجارية-أمنية بين الطرفين، يعلن عبر فعل الصمت : كيف يجب أن يكون!

أما "ميشال فوكو" Michel Foucault فالرقابة لديه هي جهاز، وهذا الجهاز يرتبط مباشرة بلعبة السلطة والمعرفة فيقول: "ما أحاول رصده من خلال هذا الاسم هو (...) مجموعة مختلطة فعليا، تتضمن خطابات مؤسسات وتهيئات معمارية، وقرارات تنظيمية، وقوانين، وإجراءات إدارية، وملفوظات علمية وفرضيات فلسفية، وباختصار شيء من القول وعدم القول أيضا. والجهاز نفسه هو الشبكة التي تجمع بين كل هذه العناصر"⁽⁵⁾. فالرقابة بهذا الشكل تتخلى عن طبيعتها المستلبة كونها تابعة للمؤسسة السياسية-الدينية، لتصبح هي نفسها مؤسسة مستقلة، تدير شؤونها بنفسها، تمتلك عناصر تجنّدها لحسابها الخاص، كما تنفرد بأساليبها الذاتية وإجراءاتها الخاصة في تسيير الأمور ومعالجتها. ونوضح ذلك عبر المخطط الآتي:



مخطط جهاز الرقابة عند "ميشال فوكو"

2- مضامين الرقابة: اتّسم كلّ من الإبداع والفكر والنقد في الوطن العربي بهيمنة مجموعة من القضايا والإيديولوجيات على تلك النتاجات كالكشف عن الخطاب السياسي السائد الذي يتوارى خلف عدة أقنعة كلها تساهم في توطيد الانهزامية للخطاب الإبداعي واستلابه، وكذا احتفالية الجنس الأدبي والانفلات الأجناسي. إضافة إلى الإيديولوجيا الدينية المغايرة التي جاءت وخرقت أفق توقع المتلقي العربي الذي تعود على قناع الأخلاق

المزيف، والحدود النوعية بين الأجناس الأدبية، والتوجس المريب اتجاه كل ما يحمل وسم الدين. وبالتالي كانت هذه الأوجه المغايرة والأبعاد المحرمة هي السبب الرئيسي لمصادرة هذه الأعمال ومنعها.

أ- **الرقابة والأبعاد السياسية:** السلطة السياسية هي: "أرفع السلطات الاجتماعية التي تحكم الاجتماعات الخاصة في المجتمع المدني. فهي لا تسمح في العادة بأن توجد في داخلها تنظيمات غير تابعة لها وغير مؤتمرة بأمرها على نحو مباشر. هذا فضلا عن أنه لا يمكن أن نتصور وجود أجهزة للشواب والعقاب غير تلك الأجهزة التي تملكها السلطة السياسية (الدولة)"⁽⁶⁾. ومقابل هذه السلطة نجد السلطة الإبداعية، إذ تلتقي الكتابة الإبداعية والسياسة حين تملك كل واحدة منها سلطتها الخاصة، وإن اختلف تصور كل طرف لمفهوم تلك السلطة. فقد تتفق هاتان السلطانان إذا سخرت الكتابة نفسها لخدمة السياسة وتكريس سلطتها، كما قد تتعارضان إذا تشبثت كل منهما بسلطتها وقررت عدم الانصهار في ذات وسلطة الأخرى، فتكون هنا المواجهة والصراع. ويصحب هذا التصادم السلطوي القمع والاستلاب للذان يصدران دائما عن المؤسسة السياسية تجاه المؤسسة الثقافية الأدبية عن طريق سجن ونفي المثقفين ومصادرة أعمالهم الإبداعية (خاصة الروائية) وفرض الرقابة على القلم... إلخ. وللتاريخ شهاداته على ذلك في الماضي والحاضر؛ فكم من الروايات والدواوين الشعرية خضعت لفعل الرقابة والمنع فقط لأنها تحدثت عن نظام حكم معين أو انتقدت الحزب الحاكم تلميحاً أو تصريحاً. وكم من الكتب صودرت وجلبت الولايات لأصحابها وجنت عليهم حتى لو كان واحداً من رجال الدين أو السياسة؛ وهو الأمر عينه الذي حدث مع "علي عبد الرازق" وكتابه: "الإسلام وأصول الحكم". ورغم أن هذا الكتاب مضمونه في السياسة الشرعية، إلا أننا أثّرنا أن نستشهد به لأنه -حسب رأينا الخاص- يؤسس لتجديد بنية الفكر العربي الحديث، ويدعو لتجاوز ما هو سائد نحو آفاق إبداعية رحبة تكون بدايتها سياسية ومنتهىها إبداعية أدبية. بيد أن السلطة السياسية لا تسمح أبداً بمثل هذا الفعل دون موافقتها.

لقد شهدت سنة 1925م جدلاً وشغبا فكريين، وهذا لأن المؤلف قد بحث في كتب التراث ودرس حياة السلف وصولاً إلى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقال في كتابه حول قضية الخلافة: "أما بعد فإن دعوى الوجوب الشرعي دعوى كبيرة، وليس كل حديث وإن صح بصلاح لموازنة تلك الدعوى"⁽⁷⁾. هكذا فصل الكاتب في الجدل القائم حول قضية الخلافة آنذاك، ووقف حائلاً دون امتلاك "أحمد فؤاد" لقب خليفة المسلمين بدل ملك مصر فقط. وطبعاً كان للرقيب السياسي دوره، فانتقض ليعقد محكمة طارئة تتكون من خمسة وعشرين قاضياً ليجرده من درجاته العلمية ومنصبه ومجمل حقوقه المدنية.

وهكذا، وعلى الرغم من أن هذا المفكر المصلح رجل دين كونه أزهرى النشأة والانتماء، ورجل دولة كونه يشغل منصب قاضٍ في حكومة الملك "فؤاد"، إلا أن هذه الميزات لم تشفع له وتصدى له الرقيب ووقف حائلاً بينه وبين الكتابة الفكرية الحرة.

ب- **الرقابة والأبعاد الاجتماعية:** ما تتميز به الرقابة الاجتماعية هو سطوتها على ما يسمى بـ: "الأدب النسوي" الذي سطر لنفسه مكانة خاصة منذ بدايات القرن العشرين؛ ولعل أهم ما يميز مضامين تلك الروايات هو احتواؤها لما يعرف بـ: المسكوت عنه، أي أنها اخترقت الطابو المحرم عليها وعلى الرجل على حد السواء تطرقت إلى مواضيع لم يسبق لها الخوض في غمارها ولا حتى التفكير فيها، فولجت مناهة السياسة وأغوار الجنس وغياهب الدين*. وما يلاحظ هنا أن مؤسسة الرقابة كانت متسامحة في كتابات الجنس مع الرجل دون المرأة، فراحت المرأة

العربية تكتب بجراً غير متناهية حول الطابو المحرّم على الأنثى ألا وهو: "الجنس" حتى غدا الجنس سمة ثابتة في إبداعاتها، بل إن أغلب الروايات النسوية قد صنّفت ضمن الأدب الأيروسي.

وقد أضحى الجنس ميدانا مستساغا وحقلا خصبا تزرع فيه المرأة بذور أفكارها في جراً لا متناهية بغية كشف الممارسات الذكورية التي تختزل المرأة في (جسد) فجاءت روايات كان رهانها منصبا على الجسد كاشفة رغباته المكبوتة وتوقه إلى المتعة الحسية مع جسد الآخر / الرجل داخل بوتقة الحب الذي تكنه له متحدية بذلك المجتمع بأعرافه وتقاليده ومحظوراته، وهو ما عبرت عنه الروائية "ليلي الأطرش" متحدية المؤسسة الرقابية بقولها: "لا رقيب داخلي يقيدني ولا أخشى أي رقابة أخرى حين أكتب، ربما كنت جريئة بطبعي أقول ما يدور في ذهني أو ألنقطه من الواقع مهما كلفني الأمر خاصة ما يشكل محفزا للكتابة الروائية"⁽⁸⁾. ويدعم قولنا هذا ظاهرة الروايات السعودية اللواتي يعمدن إلى نشر أعمالهن الإبداعية على شكل الرواية الإلكترونية نظرا للحواجز الاجتماعية التي تقيدها. فهذه الروايات تفضح لنا عالم الحريم في المجتمع السعودي الذي يتفشى فيه الكبت الجنسي كما الشأن في رواية: "صبا الحرز": "الآخرون".

إن الجنس لم يعد يذكر من حيث هو جنس أي كوظيفة بيولوجية، بل تحول إلى فضاء رمزي يحال به إلى مسكوت عنه آخر أكثر خطورة منه وواجهة وهمية لتوجيه النقد اللاذع نحو قضية ما، مع تسريب الآراء الذاتية نحو المتلقي مثلما نجده لدى "حنان الشيخ" في روايتها: "حكاية زهرة" التي جسّدت في مشهد سردي أيروسي تاريخ لبنان الرازح تحت ثقل الخلافات والصراعات الحزبية والطائفية التي دامت ثلاثين سنة حتى اندلعت الحرب فتقول: "لقد ارتعش جسمي لأول مرة منذ ثلاثين سنة، وهاهو قد هزته اللذة وبات كأنه ينظر إلي. هل سامي فعلا قنّاص"⁽⁹⁾.

هكذا تتحدى المرأة العربية الرقابة وقوانينها في سبيل الإبداع مهما كلفها ذلك من مجابهة المجتمع لها، وأحيانا رفضه ومقاطعته.

ج- الرقابة والأبعاد الدينية: يتحدد الخطاب الديني داخل الإبداعات العربية المعاصرة بإطار إشكالي مميز تدور في نطاقه إيديولوجيا حركات تحرر الوعي والفكر، وبالتالي ينبغي أن يفهم على أنه يشكل ركيزة أساسية ضمن جملة المعايير التي تقوم عليها تلك الحركات، وعليه فهو يشكل بؤرة مركزية مميزة داخل النسق الإبداعي المعاصر. إضافة إلى أنه يشكل محورا أساسيا بغية الوصول إلى معنى جملة القضايا التي تثار ضمن تلك المتون الإبداعية والفكرية أو الإيديولوجيا السائدة هناك * * .

ورغم النوايا الحسنة التي يسعى إليها المبدع/المفكر، إلا أنه غالبا ما يصطدم بسوء فهم الرقيب تماما مثلما حدث مع المفكر الراحل "نصر حامد أبو زيد" الذي عانى ويلات الرقابة جراء آرائه التجديدية ومحاولاته الحثيثة بغية تطوير المنهج اللغوي الحديث ودراسته وفق منهجية إبداعية مبتكرة عن طريق ترسيخ عملية قراءة جديدة للتراث والقرآن.

يرى "نصر حامد أبو زيد" عبر مختلف كتبه النقدية-الفكرية أن القرآن كمنظومة لغوية يتناص مع سياقات ثقافية وتاريخية في زمن نزوله، ولا يمكن للإنسان المعاصر أن يفهم القرآن ومن خلاله الإسلام إلا إذا درسه، أي القرآن، دراسة لسانية معاصرة: "إن المتاح الوحيد أمام الدرس العلمي هو درس الكلام الإلهي من خلال تحليل معطياته في إطار النظام الثقافي الذي تجلى من خلاله. ولذلك يكون منهج التحليل اللغوي هو المنهج الوحيد

الإنساني الممكن لفهم الرسالة وفهم الإسلام" (10). محدداً ذلك عبر مجموعة من الآليات منها: آليات النص، وآليات التأويل، وآليات الاسترجاع والترديد ... إلخ ***.

وبهذا يسعى المبدع العربي سواء أكان مفكراً أم ناقداً أم كاتباً إلى أن يتحدى الأحكام الدينية القائمة؛ ونقصد هنا الأحكام العرفية وليست الفقهية، ويكسر قوانينها وتشريعاتها ليؤسس ديناً جديداً، يشرع فيه لتشريعاته التقدمية ويقيم من خلاله طقوساً دينية جديدة، ويتمرد عبره على قوانين الدين والعرف والمجتمع بغية بناء الذات وتأسيس إمبراطورية الإبداع البناء، ليرسخ من خلالها إيديولوجيات جديدة وفق ترانيم لغوية فكرية مغايرة.

3- أنواع الرقابة: تختلف أنواع الرقابة وتتعدد بتعدد مرجعياتها ومؤسساتها فنجد:

أ- **الرقابة الخارجية:** التي تتمثل في المؤسسة السياسية والدينية، وينوب عنها الرجل السياسي ورجل الدين. وهذا النوع من الرقابة هو الأقوى والأكثر هيمنة وسيطرة. فبالنسبة للرقيب السياسي نجده يحدد خطوطاً إيديولوجية حمراء، ويعين مفاهيم وقيماً تخدم السلطة الحاكمة ويحرسها ليل نهار حتى لا يخل أديب ما بإحدى هذه القيم والمفاهيم، وإذا أدرج ضمن ثنايا إبداعه مفهوماً جديداً مغايراً لما هو سائد فإن سيف الرقابة يقوم بعملية البتر أو الإقصاء أو الإلغاء. وهو ما نجده في أغلب البلدان العربية كحزب البعث السوري والعراقي قبل الاحتلال والكتاب الأخضر في ليبيا.

أما الرقيب الديني فحاله لا يختلف كثيراً عن الرقيب السياسي. وبما أن الدين الأكثر انتشاراً في الوطن العربي هو الإسلام، فإن كل ما يخالف تعاليمه وتشريعاته يخضع إلى المصادرة والبتر والمنع والحرق. ويصل الأمر في بعض الأحيان إلى حد التكفير مثلما هو الحال مع المفكر "نصر حامد أبو زيد" و"أحمد صادق العظم" ... وغيرهما كثير، وغالباً ما يتحد الرقيب الديني مع الرقيب السياسي لمواجهة الإبداع الأدبي مثلما نجده في المملكة العربية السعودية التي تمنع قصائد "محمود درويش" لأنها تطال النظام الملكي بطريقة غير لائقة وتمنع في الآن عينه الروايات المأجنة - على حد تعبيرهم - التي تخل بالحياة العام.

ب- **الرقيب الجماهيري:** وهو رقيب يتشكل داخل حلقة الجماهير الاجتماعية، يتولى حماية عاداته وتقاليده ومقدساته. وتتحصر رقابته تحديداً حول الأخلاق العامة والجنس. ومثال ذلك ما حدث في البحرين، تلك المظاهرات الجماهيرية الحاشدة التي خرجت إلى شوارع مدينة المنامة لتطالب بإلغاء إحدى البرامج الواقعية التي تبث مباشرة على التلفاز يوميات مجموعة طلاب فنون (بنات وذكور). ومفاد هذا الاعتراض هو الاختلاط الحاصل بين أفراد هذا البرنامج من ذكور وإناث وتواجدهم في مكان واحد طيلة ثلاثة أشهر. وهذا أمر يدعو إلى الانحلال وفساد الأخلاق حسب مفهوم تلك الجماهير الغاضبة. وبالفعل تم إلغاء هذا البرنامج.

هنا نلاحظ أن الرقيب الجماهيري يساعد كل من الرقيب السياسي والديني ويتواطأ معهما، بل إنه هو الذي يؤسس لمشروعيتها عبر تمثيلهما في الحياة العامة.

ج- **الرقيب المثقف:** وهو أسوأ أنواع الرقابة لأن: "رقابة المثقفين ضد زملائهم: أكثر أنواع الرقابة قسوة هي رقابة المثقف على المثقف بسبب الاختلاف أو الغيرة أو تصفية الحسابات الشخصية والتحالفات الشخصية" (11) إذ تكلف المؤسسة الدينية والسياسية مثقفاً متواطئاً معها ليمارس فعل الرقابة والقمع على مثقف آخر، وما أكثرها بشهادة العديد من الأدباء والروائيين كحال "ادوارد الخراط" الذي كان يستدعى من طرف رئيس تحرير إحدى الجرائد، والذي يدعي أنه نسي اسمه، والذي كان يطالبه باستمرار بحذف مقاطع وكلمات من إحدى رواياته، التي

كان ينشرها على صفحات تلك الجريدة فيبوح لنا مادار بينهما: "كانت لي معه جلسات عديدة دارت فيها مناقشات طويلة ودقيقة، وأشهد أنه كان يتمتع بحس لغوي جيد، وكانت اعتراضاته كلها تنصب على ألفاظ وعبارات، رآها تخدش الآداب العامة"⁽¹²⁾. فما كان منه إلا العودة إلى مخطوط "حيطان عارية" لينفذ أوامر الرقيب التي لا يجب إلا أن تتم.

د- الرقيب الذاتي: وهي رقابة المبدع على ذاته، إذ يتحول وسط هذا الجو المفعم بالقمع والإرهاب الرقابي إلى مقص ذاتي يبتز أعماله بنفسه حين يولد الكاتب لذاته قمعا داخليا؛ وتتحول طاقته من مجابهة القمع الخارجي وتحديه إلى مواجهة القمع الداخلي والتحايل عليه.

إن هذه الأنواع المتعددة للرقابة تساهم في ميلاد نص إبداعى مبتور، يعاني القمع والكبت. وظلت الذات العربية المبدعة: "ترتجف تحت وطأة القهر والقمع والتمرد، تبحث عبثا عن صفاء قيم وتقاليدها رحلت، أو كادت. لتخلفها مقاييس وأنماط تبدو هجينة في بنية المجتمع، متداخلة كتداخل البنات الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة في حركة نموها وتطورها"⁽¹³⁾.

هذا هو حال الإبداع العربي بصفة عامة والسردى الروائي بصفة خاصة، إذ ظل مقص الرقابة يطوله سنوات وسنوات، حيث نجد روايات تحتوي على مضامين سياسية - دينية - جنسية ولكنها لا تتعرض للمصادرة والبتز. في حين نجد روايات أخرى لها نفس المضامين ولكنها تصدر وتمنع وتثار حولها ضجة إعلامية. فما هو السبب وراء ذلك؟ فكيف تسربت تلك الروايات الموجودة من بين فكي الرقيب؟ هذه الأسئلة تحتاج إلى بحث عميق ومستقل سنقوم به مستقبلا إن شاء الله.

4- أشكال الرقابة:

يتمظهر فعل الرقابة في مجموعة من الأشكال، إذ إنها لا تتجلى بشكل خارجي مباشر فقط، بل هي تتخفى تارة، وتنزى برداء الحرية تارة أخرى وهكذا ... ومن المظاهر التي تستعين بها الرقابة هناك:

أ- الاغتيال: يعد الاغتيال من أقسى أشكال الرقابة وأكثرها عنفا، لأن أصعب عقوبة يمكن أن تقع على الفرد هي الموت. والتاريخ العربي حافل بمثل هذه الأحداث، فمن "بشار بن برد" و"ابن المقفع" إلى "الطاهر جاووت" و"فرج فودة" و"بختي بن عودة" تستمر عمليات القتل وسفك الدماء التي يبدو أنها ستظل تسيل. ولم يتوقف الأمر عند عملية القتل فقط، بل تعداها إلى التتكيل بجثث الضحايا وتعذيبها كما حدث لـ"الحلاج" الذي ضرب عنقه وصلب ميتا ثم أحرقت جثته.

ب- النفي: حين يأبى الكاتب الحر أن يسخر قلمه لغير فكره وضميره، وحين تفشل كل أساليب التعذيب والإرهاب في تدجينه؛ حينها لا يبقى أمام المؤسسة الرقابية إلا الطرد والنفي خارج البلاد علما تتمكن من إسكاته. بيد أن قرار النفي والإبعاد كثيرا ما يكون لصالح المنفي، وأحيانا تكون غريبته اختيارية إذ: "إن لجوء نخبة المجتمع إلى المنفى خشية التتكيل بها من قبل الحكام قديم قدم أنظمة الاستبداد في التاريخ، فالقيم الدينية والأعراف الاجتماعية لا تردع الحاكم المستبد عن استخدام أساليب العنف والقهر ضد العلماء والفلاسفة والمتفكرين لإحكام قبضته على المجتمع، فمازالت تلك الأساليب القهرية للحكام معتمدة حتى وقتنا الراهن، ومازال المنفى ملجأ للمعارضة للحفاظ على حياتها من بطش الحكام"⁽¹⁴⁾، مثل "أحمد مطر" الذي نُفي وأبعد قصرا عن بلاده، فارتحل

محملاً بذكريات الوطن وهمومه، ولم يحل المنفى دون قضيته الأولى، بل ظل يكتب ويبدع ويواجه السلطة عبر آلاف الأميال.

ج- المنع: يتم فعل المنع عن طريق عدم السماح بتداول بعض العناوين والتصدي لهذه المطبوعات في المكتبات ودور النشر، والحوّل دون دخولها البلاد كرواية "أبناء الجبلوي" للكاتب "إبراهيم فرغلي" وكتاب: "مقدمة في فقه اللغة العربية" لـ: "لويس عوض". فلا نسمع إلا صراخ الكتاب وعويلهم كما صرخ "عز الدين إسماعيل" متذمراً: "أزعم أن أي شاعر عربي لم يتعرض للمنح مثلي [...] فالجسد ممنوع والنص ممنوع، لكن خيالي يقتحم كل الحواجز والحدود"⁽¹⁵⁾.

د- الحرق: تعتمد المؤسسات الرقابية إلى إحراق الكتب للتخلص منها نهائياً. ففي الماضي أحرق الأندلسيون كتب "ابن حزم" و"ابن رشد" بدعوى الهرطقة وممارسة الفلسفة. كما لم تسلم مؤلفات "الغزالي" الذي حارب الفلسفة والفلاسفة بمجرد دخولها شبه الجزيرة لأن مضامينها مغايرة للفكر السائد هناك. ولم تندثر هذه الممارسة في الزمن الراهن، فجدد المحرقة النازية الكبرى في 10 ماي 1933م التي التهمت حوالي 20 ألف كتاب. وقامت إحدى الحكومات العربية بمصادرة وحرق ثلاثمائة نسخة من رواية الروائي والشاعر الكردي السوري المعروف "سليم بركات": "دلشاد".

هـ- القوائم السوداء: وهي لوائح بأسماء شخصيات أو عناوين كتب توضع في المطارات والحدود والتلفزيونات مع أوامر بمنعها من الدخول أو ذكر إيجابياتها علناً، كما حدث مع "محمود درويش" وعدد من قصائده في بعض البلدان العربية.

و- المحاكمات: أي رفع دعاوى قضائية ضد الكتاب كما حدث مع "عبد الوازن" بلبنان، ومحاكمة "ليلى العثمان" و"عالية شعيب" بالكويت.

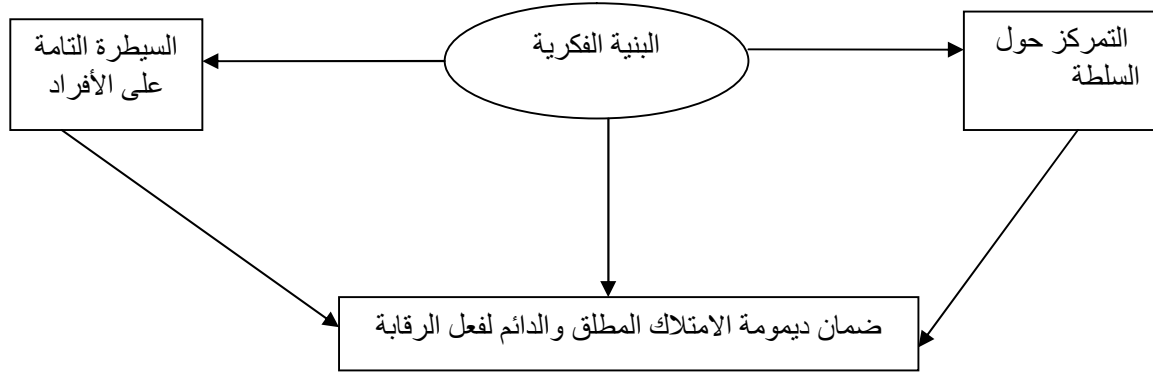
ي- التكفير: يصدر دائماً قرار التكفير عن المؤسسة الدينية بتواطؤ مع المؤسسة السياسية، وهذا إجراء ليس بالحديث بل إن قضية الزندقة والهرطقة والإلحاد قديمة حديثة، فتختلف المسميات والمضمون واحد. ولعل أكبر قضية تكفير أثارت جدلاً وبلبله في العصر الحديث هي "تصر حامد أبو زيد" الذي تجاوزت قضيته التكفير، وصدر أمر قضائي بتفريقه عن زوجته، وكل هذا بسبب كتاباته المغايرة والصريحة حول الخطاب الديني؛ وهو يجيبهم بقوله: "من الخجل أن يوصف بالكفر من يحاول ممارسة الفكر، وأن يكون التكفير هو عقاب التفكير. هو مخجل في أي مجتمع وفي أي لحظة تاريخية"⁽¹⁶⁾. وهو عينه ما حدث مع الشاعر الأردني "موسى حوامدة"، صاحب ديوان "شجري أعلى"، والذي تواصلت محاكمته طوال أربع سنوات بتهمة أخطرها "الردة عن الدين".

ك- بتر النصوص: كثيراً ما تتدخل الرقابة في تشكيل النصوص الأدبية وبنائها الفني عبر ممثليها، وهذا هو المستوى أو العتبة التي تتكلم منها الرقابة وحققها الأولي"⁽¹⁷⁾. وكثيرة هي شكاوى المبدعين وتذمرهم من تدخل الرقيب وتعسفه، الذي ما إن يلاحظ ما يخالف أهواءه حتى يسارع بتشغيل مقصده وتدجين قلم الكاتب، كما حدث مع "صنع الله إبراهيم" في روايته: "تلك الرائحة" و"أمين الزاوي" في "رائحة الأنثى"، وغيرهما كثير.

خاتمة

يعود كثير من مسوغات فعل الرقابة وممارساتها إلى البنية الفكرية للمؤسسات الاجتماعية القائمة، ونقصد بها المؤسسة السياسية والدينية والاقتصادية والمجتمع المدني. ومصطلح الفكرية هنا لا يحيلنا على الجانب

المعرفي العلمي أو التفكير الفلسفي، بل هو نواة مركزية تنطلق منها ركائز هذه المؤسسات وإليها تعود أهدافها المتمثلة في التمركز حول السلطة والسيطرة التامة على الأفراد، وضمان ديمومة الامتلاك المطلق والدائم لفعل هذه السلطة وممارستها:



كما أن أغلب الأعمال الأدبية التي تعرضت لها الرقابة، بغض النظر عن الرداء الذي تزينت به، إنما ساهمت في نشرها والتعريف بها لدى القارئ سواء أكان عربياً أم عالمياً، مع العلم أنها ليست كلها ذات مستوى فني راق.

التهميش:

- 1- محمد عبد الله الغدامي: حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2005م، ط3، ص 85.
- 2- روجيه كايوا: الإنسان والمقدس، ترجمة: سميرة ريشا، مراجعة: جورج سليمان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010م، ط1، ص 42.
- 3- المرجع نفسه، ص 42.
- 4- بيبير بورديو: مسائل في علم الاجتماع، ترجمة: هناء صبحي، مراجعة: فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، 2012، ط1، ص 222.
- 5- ميشيل فوكو: المعرفة والسلطة، بتصرف: عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994م، ط1، ص 55.
- 6- طيب مولود: أحكام السلطة السياسية، دار الخلدونية، الجزائر، 2006م، ط1، ص 13.
- 7- علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988، ص 27.
- *- انظر: سهيلة سبتي: تجليات الخطاب الديني في الرواية العربية الأنثوية، مجلة: ديوان العرب، تاريخ: 7 حزيران (يونيو) 2010م، <http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=backend>
- 8- عزيزة علي: حوار مع ليلى الأطرش، مجلة عمان، عدد 125، أمانة عمان الكبرى، تشرين الثاني، 2005م، ص 29.
- 9- حنان الشيخ: حكاية زهرة، دار الآداب، 1998 م، ط3، ص 182.
- ** - انظر: سهيلة سبتي: تجليات الخطاب الديني في الرواية العربية الأنثوية، مجلة: ديوان العرب، مرجع سابق.
- 10- نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، 2000، ط5، ص 27.
- ***- هذه بعض مبادئ الاشتغال القرآني، لم نفصلها كثيراً لأنها بعيدة عن مجال البحث.
- 11- عز الدين المناصرة: الشاعر المستقل خائفاً ومخيفاً، من كتاب: الإبداع والحرية واقع وطموحات: مجموعة مؤلفين، منشورات جامعة فيلادلفيا، عمان -الأردن، 2001، (د.ط.)، ص 78.

- 12- ادوارد الخراط : أنا والطابو، مجلة فصول، مجلد 11، عدد 3، القاهرة، خريف 1992م، ط2، ص 52.
- 13- محمد رضوان: محنة الذات بين السلطة والقبلية: دراسة لأشكال القمع في الرواية العربية، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002م، (د.ط)، ص 07.
- 14- صاحب الربيعي: رؤية الفلاسفة في الدولة والمجتمع، صفحات للنشر والتوزيع، دمشق، 2007م، ط 1، ص 12.
- 15- عز الدين إسماعيل: قمع المتنقف/قمع النص الأدبي: مجلة الآداب، عدد 8/7، بيروت، 2004م، ص 68.
- 16- نصر حامد أبو زيد: التفكير في زمن التكفير: ضد الجهل والزيف والخرافة، مطبعة مدبولي، القاهرة، 1995م، ط 2، ص 13.
- 17- العادل خضر: الرقابة اليوم: بين منع الكلام وحرمة الجسد، دار بئرا للنشر والتوزيع، دمشق، 2009م، ط 1، ص 63.